الشرع الاسلامي وعلماء الفرنج (*)

للأستاذ مصطفى محمد حسين

« كتب الفرنج كثيراً عن الشرع الاسلامي وعن النبي العربي صلى الله عليه وسلم ، وفي ما كتبوه الغث والسمين ، والحالي والعاطل ، والحق والباطل . ولكن العصر الأخير أنصف الاسلام كثيراً بالقياس إلى العصور الخوالي ، كما يتبين من الأقوال التي أنقلها ولو عمى المسلمون بدعاية منظمة للاسلام لصححوا أباطيل كثيرة وبددوا أوهاماً كثيرة تتعلق بهم وبدينهم ، ولاهتدى إلى الاسلام جم غفير يؤثرون تأثيراً شديداً في مجرى السياسة العامة » .

قال كارليل : في الإسلام خصلة أراها من أشرف الخلال وأجلها ، وهي التسوية بين الناس ، وهذا يدل على أصدق النظر وأصوب الرأي ، فنفس المؤمن راجحة بجميع دول الأرض ، والناس في الإسلام سواء . والإسلام لا يكتفي بجعل الصدقة سنة محبوبة بل يجعلها فرضاً حتماً على كل مسلم ، وقاعدة من قواعد الإسلام ، ثم يقدرها بالنسبة إلى ثروة الرجل ، فتكون جزءاً من أربعين من الثروة تعطى إلى الفقراء والمساكين والمنكوبين . جميل والله كل هذا ، وما هو إلا صوت الإنسانية ، صوت الرحمة والأخاء والمساواة يصيح من فؤاد ذلك الرجل ابن القفار والصحراء (صلى الله عليه وسلم) .

وقال الدكتور انسباتو الإيطالي في كتاب : (الإسلام وسياسة الحلفاء) الذي نشره سنة ١٩١٩ : إن الكرم العلمي والصدقة الفكرية صفتان من صفات الإسلام شأنهما أن تجعلا الأمة العاملة بهذا الدين أهلا لأن تبلغ من الحضارة ذروتها العليا .

لما كان الأستاذ أمين الريحاني في السفينة الشراعية على ساحل جزيرة البحرين قاصداً ساحل الأحساء أثقل الهواء جفنه فنام قليلا ، ثم أيقظه صوت الملاحين ، وهم إذ ذاك يشتغلون في قلب الشراع طوعاً للريح ويرددون : (صلى على النبي) فقال الريحاني في كتابه (ملوك العرب) يصف أثر ذلك في نفسه : وربك أيها القارئ ما سمعت في أنغام الليل على المياه أطرب منها ، إلا أن يكون صوت المؤذن في الخليج وهو يؤذن الفجر ، ليس في صلوات الأمم كلها أدعى منه إلى الورع والخشوع ، وقل فيها ما هو أجل وقعاً في النفس من صلاة الملاح في ظل الشراع .

اجتمع الأستاذ محمد لطفي جمعة مع السيد توفيق الـ بعد عودته من مستشفى بيروت إلى القاهرة ، ودار بينهما حديث نشره المقطم ، ومما قاله فيه : وجاء على لساني عرضاً ذكر برتليمي سانت هيلير فقال السيد : بعد أن تنتهي من حديثك سأذكر لك عبارة تاريخية تنسب إلى سانت هيلير . فتكلمت وأسهبت ، ولكن السيد لم ينس وعده فلما انتهيت قال لي :

قال سانت هيلر في تاريخ النبي محمد الذي ألفه باللغة الفرنسية إنه كان يشك في صدق النبي في رسالته حتى قرأ في جميع السير أنه لما نزلت آية الحفظ ووعد الله نبيه بأنه سيتولى حراسته (والله يعصمك من الناس) . بادر محمد إلى صرف حراسه ، والمرء لا يكذب على نفسه ولا يخدعها ؛ فلو كان لهذا الوحي مصدر غير الله لأبقى محمد على حرسه .

وقالت مسز سروجني نائدو الشاعرة الهندوسية : لقد دعا الإسلام قبل اليوم بثلاثة عشر قرنا إلى المساواة والأخوة ، وقد أسس الإسلام أول جمهورية كان القانون الإلهي رائدها ، والفقير والغني سواء فيها ، ولا شك مطلقاً أنه يأتي يوم يبتلع الإسلام فيه جميع الأديان .

وقال شبلي شميل : إن في القرآن أحوالا اجتماعية عامة ، حتى في أمر النساء فإنه كلفهن بأن يكن محجوبات عن الريب والفواحش ، وأوجب على الرجل أن يتزوج بواحدة عند عدم إمكان العدل ، وأن القرآن فتح أمام البشر أبواب العمل للدنيا والآخرة ، ولترقية الروح والجسد ، بعد أن أوصد غيره من الأديان تلك الأبواب فقصر وظيفة البشرية على الزهد والتخلي عن هذا العالم الفاني .

وقال هنري دي شامبون مدير (ريفوبارلمنتير) الفرنسية : لولا انتصار جيش (شارل مارتل) الهمجي على تقدم العرب في فرنسة لما وقعت فرنسة في ظلمات القرون الوسطى ولما أصيبت بفظائعها ولا كابدت المذابح الأهلية الناشئة عن التعصب المذهبي

(*) ذكرني بهذه الكلمات مقال الأستاذ حسن أحمد الخطيب (الشريعة الاسلامية وأعلام القانون في هذا العصر) المنشور في عدد الرسالة ٦٨٩ .

ذبحهم فى قرارهم القديم أولئك السفاحون من أهل بيدمنت ، وألقوا بالأم وطفلها من حالق فوق الصخور ترميهم صخرة إلى صخرة ؛ لقد كان لأناتهم فى الأودية صدى رفعته إلى التلال ، ونقلته التلال إلى السماء ؛ انثر أيها المولى دماءهم الشهيدة وأشلاءهم على حقول إيطاليا كما تنثر البذور[1] حيث لا يزال يتسلط الطاغية الثلاثى[2] عسى أن ينمو من هذه مائة نمو فيكون منها جيل يقد علم سبيلك بالقضاء على هذا الكرب البابلونى[3] » .

وجنح ملتن إلى العزلة بعد هذا الحادث ، وكان يقضى أكثر الوقت فى بيته ، يقرأ له ابن أخته أو غيره من تلاميذه القدامى أو من محبيه من المتأدبين حاشيتى النهار وطرفاً من الليل ، وكان يدير فى رأسه فى تلك الأيام ما عسى أن ينهض له من الشعر . ففكر فى أن يجعل موضوعه بطولة الملك آرثر ، ذلك الموضوع الذى فكر فيه من قبل فينظم الآرثريادا كلحمة يسجل فيها فترة من تاريخ قومه ؛ ولكن أكثر اتجاهه كان إلى موضوع آخر كما يذكر ابن أخته وذلك هو « قصيدة من قصائد البطولة عنوانها الفردوس المفقود » ، واقتصر جهده على التدبر فى هذا الموضوع والصورة التى يصوغه فيها وقراءة ما يتصل به ، وكان أول الأمر يريد أن يتخذ نوعاً من المسرحيات لباساً له ؛ على أنه كما يذكر ابن أخته فيليبس لم يبدأ نظم قصيدته فعلا إلا لسنتين قبل عودة الملكية أى سنة ١٦٥٨ ...

وكانت الحكومة قد أسكنت ملتن هويت هول فى أول عهده بالوظيفة ، ولكنه لم يلبث هناك طويلا فاستأجر بيتاً على مقربة من حدائق سان جيمس وعاش فيه منذ سنة ١٦٥٢ ، وفى هذا المنزل أقام ملتن حتى سنة ١٦٦٠ حيث أجبرته عودة الملكية إلى الاختفاء حينا لينجو بنفسه من الهلاك .

وكان يزوره فى منزله أصدقاؤه ، وهم بين تلميذ له جاوز مرحلة التعلم أو معجب به من المثقفين ، وقل فى زائريه من كان من المبرزين من رجال العصر فى الأدب أو فى السياسة أو فى الدين ، وذلك أن اعتداد ملتن برأيه وتعاليه بثقافته جعلا بينه وبين أكثر الناس ممن يرون أنفسهم أنداداً له حجاباً كثيفاً ، فكان هؤلاء يرمونه بالكبرياء والصلف ويكرهون منه أن ينظر إليهم من عل نظرة ترفع وتحفظ وإعراض ، هذا إلى أن آراءه الدينية قد باعدت بينه وبين النابهين من البرسبتيرنز ، وميوله السياسية قد جعلت من الملكيين أعداء له ، وعنفه فى الخصومة قد ألقى فى روع الناس أن من يتصل به لا يأمن أن يصبح من عدوه لأقل خلاف فى الرأى أو فى العقيدة .

ويجب أن نضيف إلى تلك الأسباب محبته للعزلة منذ أيامه فى هورتون وعكوفه على المطالعة والدرس ؛ فقد كان ميله إلى العزلة من الظواهر الواضحة فى حياته ؛ وقد كرهت إليه محبة العزلة لقاء الناس وغشيان مجالسهم أو سوامرهم ، وعنده من الكتب عن ذلك عوض . ففيها لنفسه ولعقله متعة حق متعة .

ونستطيع أن نتبين مقدار ما كان بينه وبين نابهى عصره من جفاء مما ذكرته أرملته عن رأيه فى هوبز الفيلسوف الكبير قالت « لم تكن له معرفة به ، وكان لا يحبه زوجى أبداً وإن كان يصرح أنه رجل ذو نواح عظيمة » .

وكان من أحب أصدقائه إليه وأكثرهم اختلافا إلى منزله وأقربهم مجلساً منه لورنس وسيرياك سكنز ونيدهام وهارتلب وأولدنبرج وأندرومارفل ، وكان الأولان تلميذين له أما البقية فكانوا من ذوى المكانة الأدبية وعلى الأخص آخرهم ذلك الذى اختير مساعداً لملتن فى وظيفته الرسمية سنة ١٦٥٧ ، وكان مارفل متين الخلق كصاحبه لا تضعضعه النوائب ولا تحنى رأسه الفاقة ، وكان أصغر من ملتن باثنتى عشرة سنة وكان مثله متخرجاً فى كمبردج ، وقد أحب ملتن حباً شديداً وأعجب به إعجاباً عظيما فتوثقت بينهما عرى المودة وظل مارفل على ولائه له حتى فرق بينهما الموت .

ويذكر فيليبس أنه كان يزور خاله إبان السنوات الثمانية التى قضاها فيما يشبه العزلة قبل عودة الملكية عدد كبير من ذوى المكانة ثم لا يشير إلا إلى اثنين : ليدى رانالا ودكتور باجت ، وكانت ليدى رانالا على حظ من الذكاء غير قليل كما كانت ذات ثقافة وذات ميول حرة ؛ وكانت قد وكلت إلى ملتن تعليم ابن أخ لها ثم ابنها من بعده ، وقد أعجبت بالشاعر العظيم ولما كان لا يستطيع زيارتها كانت تزوره هى وتستمع فى إكبار وإجلال إلى حديثه ...

(١) إشارة إلى حكمة مؤداها أن دماء الشهداء هى بذور الكنيسة
(٢) إشارة إلى البابا الذى يلبس عمامة بها ثلاثة تيجان .
(٣) شبه مدن روما وكنيستها ببابل وهى حد المسبحين من أتعس المدن وأشقاها وكانوا يسمونها بابلون .

وحدثت عنه دبورا إحدى بناته فقالت : « إنه كان جليساً مؤنساً ، وكان حياة حلقة من الصحاب تدور به ، وذلك لأنه كان يتدفق بشتى الأحاديث والموضوعات وكان عذب الروح مرحاً ذا مودة فى غير تكلف لشىء من هذا » .

والحق أن ملتن كان لين الجانب طلق المحيا محبب العشرة صادق المودة لمن يجلس منه مجلس التلميذ من أستاذه وهؤلاء هم خاصته الذين ذكرنا ، وكانت لهجته فى مخاطبتهم لهجة المعلم ، وكان يتلو عليهم ما يظن أنهم فى حاجة إلى معرفته ولا يحب أن يجادلهم أو يبادلهم حجة بحجة فليس هذا شأن الأستاذ مع تلاميذه ، وما منهم إلا من يكبره ويخفض له جناحه ويغض عنده من صوته ، وإن كثيراً منهم ليتنافسون من يكتب له إذا أملى ومن يقرأ له إذا طلب بحثاً من البحوث ، ومن يقوده ويأخذ بيده ليمشى ساعة فى الحدائق القريبة ، وكلهم بذلك مغتبط أيما اغتباط .

وكان يزوره فى منزله كثير من كبراء الأجانب ممن يهبطون انجلترة ، وكانوا يسمعونه عبارات التجلة والاعجاب ، ويذكر أوبرى أحد مؤرخى حياته فى ذلك قوله « إن الحافز الوحيد الذى كان يحفز فريقاً من الأجانب لزيارة انجلترة كان فى الأكثر رؤية أليفر كرمول حامى الجمهورية ومنستر جون ملتن ، وكانوا يرغبون أن يروا بيت الشاعر والحجرة التى ولد فيها فقد كان الاعجاب به خارج انجلترة أشد منه فى موطنه كثيراً » .

وكان يعينه فى كثير من شؤونه إلى جانب أصدقائه ابنا أخته . أما بناته الثلاثة فكن صغيرات فقد تركتهن أمهن حين ماتت منذ ثلاث سنوات أى سنة ١٦٥٢ وكبراهن فى السادسة من عمرها ووسطاهن فى الرابعة وصغراهن بنت شهر واحد .

وفى سنة ١٦٥٦ تزوج ملتن بزوجة ثانية ، وقد جاءت كما أحب رجاحة عقل وصدق عاطفة ، واستنشى الشاعر نسيم المودة والرحمة بين يديها ، وأحس كأنما يحيى حياة جديدة على الرغم مما يحيط به من ظلمة ، وكان كمن ألقت به الصحراء المجدبة إلى واحة ظليلة ؛ ولكنه لم يلبث فى واحته هذه أو جنته إلا خمسة عشر شهراً ثم نكبته النكبة فى زوجته فكأنما كان يكيد له الدهر حين أذاقه النعيم فما كان ذلك منه إلا ليعظم فى نفسه هول الجحيم وماتت الزوجة كسابقتها فى سرير الوضع وتركت له كذلك أنثى لم تعش بعد أمها إلا نحو شهر ؛ ونزع الشاعر إلى فيثارته يخفف عن نفسه ما يعتلج فيها من حزن ، وكأنه من فرط ما فى جوفه من حريق يحس كأن الجحيم تنفسها تتنفس على كبده . قال الشاعر المحزون : « رأيت فيما يرى النائم أن قديستى التى تزوجت بها أخيراً قد أحضرت إلى من القبر كما أحضرت أليستس[1] التى أرجعها الابن الأكبر لهرقل إلى زوجها الذى امتلأ فرحاً وقد نجاها ابن جوف من الموت بقوة ولو أنها ظلت شاحبة هزيلة ، ولكن امرأتى جاءت كما لو أنها اغتسلت مما يتركه الوضع فتخلصت بذلك من التطهر وفق الوضع القديم ؛ ونظرت فإذا بى كأنى أملأ منها عينى فى الجنة بغير عائق ما ، وقد خطرت فى ثياب بيضاء نقية نقاء عقلها ، ولكن وجهها كان مقنعاً ، بيد أنى أبصرتها بعينى خيالى فاذا الحب والجمال وطيبة القلب تضىء فى هيكلها بصورة لن يكون أحسن منها وأبهج فى وجه من الوجوه ... ولكنها يا ويلتا ما كادت تميل إلى لتعانقنى حتى صحوت فلم أجدها ووجدت النهار يحيطنى ثانية بليلى المظلم » .

هذا هو الشاعر يصف فى هذه المقطوعة الجميلة مبلغ حزنه ولكن به كبرياء أن يصرعه الخطب ؛ وإن صدق إخلاصه للشعر واعتقاده أنه خلق لعظيمة فيه ليرتفع به عن الحزن ؛ وكان يجد عزاءه فيما يقرأ له أصدقاؤه وفيما تنطوى عليه نفسه وتختزنه ذاكرته ؛ وإنه فى هذا ليتداوى بالتى كانت هى الداء ، فهذه الكتب هى التى أفقدته ناظريه؛ على أنه اليوم يقرؤها بعينى غيره .

وكان يقول لمن حوله إن خياله يضىء ويلتمع فى الظلمة أكثر مما يضىء فى النور ، وأن النور لم يذهب عنه ولكنه تسرب إلى داخله ليرهف مخيلته وعقله ، وتلك تعلات كان لا بد له منها لكى يقوى على ما كان يحيط به ، وإنه لينهض على ما هو فيه لقصيدة تضعه فى مستوى هوميروس ودانتى ، وما نعرف شاعراً كانت حاله أكثر سوءاً من حال هذا الشاعر حين يضطلع بعبء كهذا العبء وفى هذا أبلغ شاهد على سمو روحه وقوة نفسه .

(يتبع) الخفيف

(١) زوجة أودميتس ملك فيرا فى تساليا ، وقد وعد أن ينقذ من الموت إذا مات أحد بدله فماتت بدله أليستس ، ولكن هرقل ابن جوف وكان صديقاً لزوجها أرجعها حية إلى ذلك الزوج ، وقد نظم يوريبيد هذه القصة فى مسرحية أليستس .